الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

الرؤيـــة اللغويـــة للعالـــم

د.سعيد الجعفر

وقد كانت المادة التي استخدمت في البحث هي مادة اسم اء النباتات مرتبة ضمن النظام المعجمي الماسم ى» الحقل الدلالي» Semantic Field وهو واحد من الأنظمة المعجمية الصغرى الى جانب المجموعة التيماتية والمجموعة المعجمية الدلالية وغيرها. بيد أن الحقل الدلالي أعقدها وأكثرها غنى. وقد تناولت موضوع الحقل الدلالي في بحث آخر سأنشره قريباً وفيه تفصيل ومحاولة لتبسيط هذا الموضوع برغم أن علم الدلالة بشكل عام هو علم للنخبة قد لا يمكن تبسيطه الى مالا نهاية. وقد قمت بعمل ميداني تألف من مجموعة من التجارب النفسية اللسانية أو تجارب التداعيات أجريتها في روسيا والسويد لمعرفة طبيعة العلاقة بين الناس والطبيعة المحيطة بهم. بيد أن الإستنتاج الذي توصلت اليه كان متشائماً وتلخص في كون الأجيال الشابة، ومن ضمنها طلاب الدراسات الإنسانية، لا يعرفون الكثير عن نباتات بلادهم.

يرتبط الموضوع اللساني (الرؤية اللغوية للعالم) إرتباطاً وثيقاً بدراسة العامل الإنساني في اللغة. وقد جرت الإشارة اليه للمرة الأولى فى فلسفة اللغة من مؤسس اللسانيات الحديثة فلهلم هومبولت. فكما يعتقد هو فأن اللغة هي واحدة من «البدايات المؤسسة للإنسان»: الإنسان يصبح إنساناً فقط من خلال اللغة لكونها تخلق نظرة الإنسان للعالم، تخلق رؤيته للعالم، وهنا لا يقصد بذلك اللغة بشكل عام بل لغة شعب محدد». ويضيف مؤكداً» إن الفرق بين اللغات في جوهره ليس فرقاً فحسب بل فرق في الجوهر بين اللغات في تأثيره في الوعي والفلاسفة وبذا يصبح فرقا في النظرة الى العالم»(هومبولت ١٩٨٥: ص ٣٧٢). وقد طرح الفلسفة الألمان في القرن التاسع عشر فكرة تعتبر نواة لما ناسم يه الرؤية اللغوية للعالم مفادها «أن منطق أرسطو كان سيبدو بشكل آخر تماماً لو كان مكسيكياً» (كارول ١٩٦٧: ص ١٤٧)

طرح مصطلح اللوحة اللغوية للعالم أول مرة في الفيزياء من قبل العالم الشهير هيرتز وكان ذلك في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. وينظر هو الى العالم كمجموعة من العلاقات الفيزياوية أو كما يعبر هو» مجموع الصور الداخلية للأشياء الخارجية، التي يمكن من خلالها وبإنتهاج الأسلوب المنطقي الحصول على المعلومات الخاصة بسلوك تلك المواد». (لوحة العالم في العلوم الطبيعية لوحة العالم بشكل واسع هو ماكس بلانك الذي يعتبر لوحة العالم صورة العالم التي يصنعها علم الفيزياء عاكسا فيها القوانين الحقيقية للطبيعة. وقد كان هو العالم الأول الذي وضع حدوداً واضحة بين اللوحتين العملية و العلمية للعالم. الأولى إعتبرها التصور المتكامل عن العالم المحيط والتي يكونها الإنسان تدريجياً من خلال معاناته، بينما تشكل اللوحة العلمية للعالم أنموذجاً للعالم الحقيقي بالمعنى المطلق وليس من خلال الرؤية الخاصة للأشخاص المختلفين أو التفكير الإنساني العام» (المصدر نفسه ص ١٠٤-١٠٦) العالم الآخر الذي تناول الموضوع وطوره هو البرت آينشتاين الذي كتب يقول:» يحاول الأنسان وبطريقة ما دقيقة ان يكون لنفسه لوحة مبسطة وواضحة للعالم لكي ينفصل عن عالم المشاعر كي يحاول حين يصل الى مستوى معين أن يغير هذا العالم الذي أوجدته تلك اللوحة. ويقوم بذلك الفنان والشاعروالفيلسوف و المنظر والباحث في العلوم الطبيعية ولكن كل على طريقته. وينقل الإنسان الى هذه اللوحة مركز الثقل في نشاطه الحياتي الروحي كي يحصل من خلالها على الطمأنينة والثقة التي لا يستطيع أن يحصل عليها في الدورة اليومية لحياته التي لا تمنحه سوى الدوار» (آينشتاين ١٩٦٧: ص ١٣٦). أما مصطلح «اللوحة اللغوية للعالم» فقد طرح في منتصف القرن العشرين من قبل اللساني الألماني الكبير ل. فايسجيربر ويجري عادة تداول المصطلح بصيغته الألمانية في الأوساط اللسانية والفلسفية وهو» Das Sprachliche Weltbild».

ولقد احتدم النقاش طويلاً في اللسانيات السوفيتية حول هذه المسألة وكان ذلك مرتبطاً بنقد نظرية النسبية اللغوية والتي كان فيسجيربر أحد واضعيها بالاشتراك مع العالمين الأمريكيين أدوارد سابير وبنجامين وورف. ولذلك لا يزال نظام المصطلحات في هذه المسألة غير منظم حتى وقتنا الحاضر(ماركوفكين ، ماركوفكينا ١٩٩٧: ص٤٩-٥٠). أما في المعجم اللسانيات الموسوعي السوفييتي فلا نجد مادة معينة تخص الموضوع ولا حتى يجري ذكره في المعجم.

وقبل الدخول في موضوع اللوحة اللغوية للعالم نلقي نظرة على مجموعة من آراء الفلاسفة واللسانيين في اللغة وطبيعتها. وسيتبين لنا أن اللغة لربما المسألة الشائكة الكبرى إذا إستثنينا مشكلة الوجود التي إحتدم حولها الصراع الفكري والفلسفي منذ جلجامش وحتى وقتنا الحاضر.

يقول كاسيرر» اللغة ليست ميكانيزم ولا كائن ، ليست حية ولا ميته. هي بشكل عام ليست بالشيء لو كنا نضع الأشياء المادية تحت هذا المصطلح. اللغة هي نشاط إنساني ذو طبيعة خاصة جداً بحيث لا يجوز وصفها من خلا ل مصطلحات الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا».(كاسيرر ١٩٤٥. المجلد الأول: ص ١١٠). أما أدوارد سابير فيكتب» اللغة ليست جرد منظم لعناصر الخبرة الحياتية ذات العلاقة بالإنسان الفرد فحسب، بل نظام إبداعي ورمزي مغلق لا يرتبط بالخبرة الحياتية فقط- بل يتجاوزها أحياناً بشكل أو بآخر- بل أنها تقولب لنا الخبرة الحياتية من خلال تركيبتها الشكلية وبناءاً على ذلك فإننا وبشكل غير واع خصائصها الى عالم الخبرة الحياتية»(سًابير ١٩٣١ المجلد ٤٧: ص ٥٧٨). أما بنجامين وورف فيورد الرأي التالي» النظام اللساني- أو بتعبير آخر النحو- لكل لغة ليس آلة إيصال الأفكار الماسم وعة بل أقرب الى ما يكون هو الخالق للأفكار، المبرمج والموجه للنشاط العقلي لأفراد المجموعة البشرية، لتحليل انطباعاتهم ولتمثيل مفرداتهم الروحية»(وورف ١٩٥٢: ص ٥). كما يقول في عمل آخر «النظام اللساني الذي تقوم عليه أية لغة – بتعبير آخر النحو- هو ليس فقط أداة توليدية للتعبير عن الأفكار، بل أنها تخلق الأفكار أيضاً، كما أنها توجه وترشد النشاطات الروحية للفرد وتحليلته وانطباعاته، وتمثيلاته لمصادره الروحية. فتكوين الأفكار هي ليست عملية مستقلة عقلانية بشكل كامل بالمعنى التقليدي بل هي جزء من نظام نحوي معين.» (وورف ١٩٥٦: ص ٢١٢-٢١٤) ونجد لدى الباحث السويدي الكبير برتيل مالمبيري في كتابه «علم الإشارة» مايلي»لا يوجد نظام إشاري يظهر هذا الغنى في التنوع، وبالتالي في إمكانات التفاضل، مثلما نجده في اللغة، وليس هنالك نظام آخريملك إمكانات اللغة في كونه وعلى أساس خزين صغير، محدود بشكل واضح، من العوامل الأولية يستطيع أن يشكل وعلى الدوام إشارات وتشكيلات من الإشارات مع الإحتفاظ بامتداد زمني (أو مكاني) مقبول من وجهة نظر الإدراك الحسي» مالمبيري ١٩٧٣: ص ١٠). وفي كتابه « لغتنا هي عالمنا» يقول الباحث الأمريكي في علم الدلالة هاياكاوا» أغلب مايوجد في وعينا يصلنا من خلال الكلمة، سواء كنا نحصل عليه من خلال أهلنا أو أصدقائنا أو أو المدارس أو الصحف أو الكتب أم الحديث أو المحاضرات أو برامج الراديو» (هاياكاوا ١٩٦٩: ص ٣١) فاية حادثة تاريخية تصلنا أما شفاهاً أو مكتوبة في نص في كتاب سواء كانت ملحمة شعرية أو نص تاريخي علمي صارم، لكنها في كل حال لا تخرج من إطار اللغة. وهناك باحث يتحدث عن شمولية اللغة من زاوية أخرى: «واحدة من الأفكار الأساسية في اللسانيات الحديثة لمقاربة علم الدلالة هي أنه لا مفر من اللغة: فمعادلات مثل السنت يساوي جزء واحد من مئة من الدولار أو أن ملح الطعام يساوي كلوريد الصوديوم ليست مساواة بين إشارة لسانية وشئ خارج اللغة بل أن ذلك تطابقاً بين تعبيرين لسانيين، يملكان على الأرجح «المعنى ذاته» (جيوفري ليج ١٩٧٤: ص ٥).

ونلاحظ الأهمية العظمى للغة التي لا تبزها فيه ظاهرة أخرى من خلال تاسم ية الكثير من الشعوب التي أدت دوراً في تأريخ الحضارة البشرية فالهلينية مأخوذة عن جذر يعني الإفصاح، بينما السنسكريتية تعني الواضح والعربي مشتق من جذر يعني الكلام الواضح. وأعتقد أن اسم اء الشعوب السامية التي تتمحور كلها حول أصوات متشابهة مثل آرامي وآموري وعبري وعربي وأمهري للغة الحبشة، ولربما ابعد من ذلك الى اسم العراق وإيران، ماهي إلا أصوات تدور حول محور جذر واحد يعبر عن معنى الكلام الواضح. فلا اعتقد أن تكرار أصوات العين والباء والراء والميم التي تتبادل مع الباء المواقع بصفتهما صوتين شفويين لم يأت اعتباطاً. وعلى نفس المنوال تمحورت أكثر المفاهيم حول تاسم يات الشعوب المغايرة مثل بربري «من الكلمة السنسكريتية باربارا أو فارفارا ومعناها التلعثم ...مع أن باحثين آخرين في علم الإشتقاق يجدون لها أصولاً سومرية وأكدية أكثر عراقة» (طرابيشي ١٩٩٨ : ص ٧٦)، وأعجمي لدى العرب، ونيميتس بالروسية وتعني أخرس في الألماني، ومنها أخذنا اسم النمسا. والكتاب المقدس يمحور رسالته حول عبارة «في البدء كانت الكلمة» وأول الوحي الذي نزل على النبي نطق فيه جبرائيل الآية الأولى من سورة العلق» إقرأ باسم ربك الذي خلق..».

ساحاول الآن الحديث عن تاسم ية هذه النظرية اللسانية التي تراوحت بين «الرؤية اللغوية للعالم: والنموذج اللغوي لعالم» و»اللوحة اللغوية للعالم» وهو أمر ضروري جداً قبل أن ندخل في غمار البحث في هذا الموضوع المتنوع والشائك. فقد كان من المتعارف عليه استخدام مصطلح «الرؤية اللغوية للعالم» ضمن سياق البحوث التي تعلقت بموضوع نظرية نسبية اللغة التي طرحها وورف وأثارت حينها جدلاً واسعاً في الأوساط اللسانية والفلسفية.

لكن العلم المعاصر أثبت أنه إذا تعذر تحديد لوحة العالم- أي عن اية لوحة يجري الحديث- فإنه لا يمكن إعتبارها محددة بدقة من الناحية العلمية. وإنه لمن الضروري أخذ بنظر الاعتبار وجود مصطلحين بشكل متزامن وهما « لوحة العالم» و» نموذج العالم». ويؤثر قاسم من الباحثين المصطلح الأول بينما يعتبره البعض الآخر» ذا محتوى غير واضح المعالم وغير محدد من الناحية البنائية»(كاراؤولوف ١٩٧٦ ص ٢٦٧). بيد أن لوحة العالم أصبح هو المصطلح الذي يميل اليه الكثير من الباحثين السوفييت حتى الذين عارضوه في البداية(كاراؤولوف ١٩٩٤: ص ٢١٧، كاراؤولوف ١٩٨٩: ص٥). وأنا أعتقد أن مصطلح لوحة العالم هو المصطلح المناسب لذلك النشاط اللساني الإبداعي غير الواعي، الحي والمتنوع كاللوحة، والذي يكون أخيراً اللوحة اللغوية للعالم. ترتبط «لوحة العالم" بمجموعة من المفاهيم الأساسية المعبرة عن الإنسان ووجوده بعلاقته الجدلية بالمحيط والشروط الأهم لوجوده في هذا العالم» (دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ص ١١). وتعرف الباحثة باستوفلوفا لوحة العالم بكونها « صورة العالم الأساسية الكونية الكامنة في رؤية الإنسان للعالم والممثلة للخصائص الجوهرية له الموجودة في فهم الناس تلك الصورة التي تتولد نتيجة لكامل النشاطات الروحية للإنسان.(المصدر السابق: ص ٢١). في حين تعتبر لوحة العالم « فئة معرفية» من باحثين آخرين(ماركوفكين، ماركوفكينا ١٩٩٧: ص ٤٩). ولا يجب المطابقة بين لوحة العالم والفلسفة. فمهمة الفلسفة كانت دائماً طرح التصورات المجردة والمثالية عن الإنسان والعالم. في حين أن لوحة العالم لا تنتج من التفلسف الواعي أو عن أيديولوجيا محددة. فهي» تنبثق في الأفعال المختلفة للإحساس بالعالم، والشعور به ، واستيعابه ، وتقويمه، واستبيانه»دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨:ص ٢٠). أي أنه حين يتم تشكيل لوحة العالم لا يشارك في العملية الوعي لوحده:» فأي وعي للعالم هو نوع من المعاناة المزوقة بالانفعال»(المصدر نفسه). ويبدو موضوع اللوحة اللغوية للعالم وكأنه يحاول أن يمنح اللغة مكانها الصحيح الذي فقدته خلال الحقب المتأخرة من تاريخ البشرية. فلا يضاهي اللغة كأداة للتفكير أي عنصر أخر كالموسيقى والتصوير والنحت والرقص والتصوير الفوتوغرافي فهي تقف، أي اللغة، بلا منازع لوحدها كأعظم أداة لعكس المشاعر والأفكار. لقد أصبح من المهم راسم حدود كل من» لوحة المفاهيم للعالم Conceptual worldview» و» اللوحة اللغوية للعالم». فالباحثة كوبرياكوفا تعتقد أن لوحة المفاهيم للعالم هي نظام مفاهيم معين (مجموعة المعارف والتصورات عن العالم)، مادته هي المفاهيم والهيئات والتصورات والبنى المعروفة للنشاط والسلوك وما شابه(دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ١٤١). أما مصطلح اللوحة اللغوية للعالم فهو» ذلك الجزء من عالم المفاهيم لدى الإنسان الذي يملك «رابطة» باللغة يجري تحطيمها من البنى اللغوية (المصدر ذاته: ص١٤٢). ويعتقد ماركوفكين أنه في اللوحة اللغوية للعالم يدخل ذلك الجزء من معرفة العالم الذي تلقننا إياه لغتنا الإم، لكن هذا الجزء» يعادل بكميته ونوعيته عدة أضعاف المعرفة التي نحصل عليها من كل المصادر الأخرى مجتمعة»- أي المعرفة التي نحملها بالفطرة عند الولادة والمعرفة العملية والتي تمنحها لنا النصوص والنشاط الفكري)(ماركوفكين، ماركوفكينا ١٩٨٤: ص ٥١). ولقد وجدت أنه من الضروري بمكان معرفة ما إذا كانت اللوحة اللغوية للعالم علمية أم ساذجة. ولا يقصد» بالساذجة» هنا المعنى السلبي للكلمة بل أن الساذج هنا يقابل العلمي، وبذا يراد به الشعبي أو العامي. فاللوحة العلمية للعالم هي نتيجة للوعي النظري الموجّه للعالم والذي يتصف بكونه «يبتعد بمسافة معينة عن الواقع» (دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ص ٤٩)، وكونه عاماً وتجريدياً وصارماً. وتشتمل اللوحة العلمية للعالم على مجموعة اللوحات الخاصة بمختلف العلوم. فهناك اللوحة الفيزياوية للعالم واللوحة البيولوجية للعالم ..الخ.

أما اللوحة الساذجة للعالم فهي بحسب أوفيمتسوفا» النظرة للعالم التي تسبق العلم». وتضيف» هي التصورات عن العالم المتشكلة بشكل عفوي والملتحمة مع الحياة العملية اليومية» (دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ص ١١٧).» والمقصود بكونها ساذجة هو أنها في الكثير من التفاصيل الملموسة تختلف عن اللوحة العلمية للعالم»(أبرسيان ١٩٩٥ أ: ص ٣٥٠- ٣٥١) وبذا فإن اللوحة الساذجة للعالم لاتتراجع في تعقيدها أمام اللوحة العلمية للعالم بل» قد تتفوق عليها»(أبرسيان ١٩٩٥ ب: ٦٣٠).

والتفكير الساذج الذي واسم التفكير البشري لفترة طويلة وأرتبط بكون العلم كان حينها في مرحلة الطفولة، بدأ ينحسر بعد الانقلابات العلمية والتقنية الكبرى منذ الاستكشافات الجغرافية وحتى عصر الكومبيوتر. بيد أن هنالك مفاهيما ساذجة لا زلنا نستخدمها حتى الآن برغم معرفتنا المطلقة بكونها ساذجة. فنحن نقول أحبك قلبي ونحن نعلم الآن أن القلب لا يملك علاقة بالمشاعر لا من قريب ولا من بعيد. كما أن أكبر عالم في الفيزياء يردد عبارة اللون الأسود وهو يعلم علم اليقين أن الأسود في الفيزياء هو غياب الألوان. ولا زلنا نقول شروق الشمس وغروبها ونحن نعلم أن الأرض هي التي تدور حول الشمس. ويورد الباحث اللساني السويدي برتيل مالمبيري في كتابه «علم الإشارة» مثلاً طريفاً عن الفرق بين التفكير العلمي والساذج أي الشعبي هو « أن الإكلات التي نأكلها في خارج البلاد والتي تصنف تحت عنوان «اسم اك» أو ماشابه تشمل عادة وبأغلبها حيوانات صدفية ليس من الاسم اك في شئ من الناحية البايولوجية» (مالمبيري ١٩٧٣: ص ٣٦). وهنالك مفاهيم مركزية في اديان التوحيد أخذت أصلاً عن الديانات الرافدية والسامية القديمة، تدخل ضمن اللوحة الساذجة للعالم. وقد انعكست تلك المفاهيم في الكتب المقدسة كالتوراة والأنجيل والقرآن. فاسم الله يأتي أصلاً من مفردة أكدية انتقلت الى اللغات السامية الأخرى تعني الأعلى، وكذلك الحال بالنسبة لكلمة الاسماء والتي تشتق من نفس الجذر الذي تشتق منه صفة سامي أو مفردة اسم و، بحيث إن ذلك انعكس على اسم اء الأماكن باليونانية مثل ساموثراكة وساموس والتي تقع جميعها في أماكن مرتفعة بحسب ما يورده مارتن برنال في عمله الهائل «أثينا السوداء». ونحن نعلم أن الأعلى والأسفل أصبحا موضوعان نسبيان بعد أن هد آينشتاين صروح الفيزياء الكلاسيكية من خلال نظريته النسبية. فموقع الأرض والمجموعة الشمسية، بل مجرة درب التبانة برمتها لا يمكن تحديده من خلال مفاهيم المكان على الأرض، فهذه المفاهيم تخص عالمنا الأرضي وتخص السرعات البطيئة وبالتالي علاقة الزمن المكان بها بشكل مباشر من خلال علاقة السرعة الطردية مع المسافة والعكسية مع الزمن. ولو أخذنا موقعنا على الأرض حتى ولو بشكل مبسط وطبقاً لمفهوم المكان على الأرض لوجدنا أن بعض سكان كوكبنا معلق كالذباب في سقف غرفة في حين أنه يعتقد من خلال خداع البصر أنه يقف أسفل الاسماء . ومن الأمثلة الأخرى هي ورود مفردات كثيرة مثل القلوب والأفئدة في الكثير من أسفار التوراة والإنجيل والآيات القرآنية والتي تربط القلب بالمشاعر في حين أن المشاعر كلها موجودة في أحد أجزاء الدماغ والقلب يخفق لا لشيء إلا لأن إفراز هرمون الأدرنالين يتزايد في حالات الإنفعال والخوف وغيرها من الأحاسيس. من الأمثلة الأخرى اقتران الشمس بالقمر في الكثير من الآيات القرآنية لكوننا ومن خلال خداع البصر نتصور أنهما في حجوم متقاربة في حين أن حجم القمر بالنسبة للشمس لربما يمكن مقارنته بحجم نملة الى حجم فيل، فالشمس أكبر حجماً من القمر بألف ومئتي مرة.

لكن الكثير من معاقل التفكير الساذج احتلت من التفكير العلمي منها المقاييس بمختلف أنواعها التي كانت مرتعاً للتفكير الساذج. فنحن لا نقول مصاب بالحمى بل نحدد درجة الحرارة ولا نقول مسافة طويلة بل نحددها بالأمتار أو الكيلومترات ولا نهدأ قبل أن نعرف ما مدى قوة الهزة الأرضية على مقياس ريختر حين نسمع خبراً عن هزة أرضية في مكان ما من الأرض...الخ

أعود الآن الى الموضوع الرئيس في هذا البحث وهو اسم اء النباتات التي تعتبر مصطلحات بيولوجية بيد أنها في الوقت نفسه كلمات تدخل ضمن الاستخدام اليومي. لكن ما أجريته من بحث حول موضوع اسم اء النباتات أثبت أنه لا يوجد تطابق مطلق بين الاسم اء العلمية للنباتات والاسم اء المستخدمة في الكلام الدارج. وأنا أعتقد أن هذا الفرق ما هو ألا فرقاً بين اللوحة العلمية واللوحة الساذجة للعالم. ولذا فمن الصعوبة القبول بفكرة كون» اللوحة المفاهيمية واللوحة اللغوية للعالم متطابقتين تماماً»(دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ص١٢٤). وليس عجيباً أن يواجه الباحث في موضوع اسماء النباتات مشاكل كبرى حين يحاول المطابقة بين الاسم العلمي والاسم المستخدم بين عامة الناس، أو حين يحاول مطابقة المكافئات المختلفة لاسم اء النباتات في اللغات المختلفة. وفي الحقيقة فإن الأمر لا يعدو كونه فرقاً بين اللوحة اللغوية الساذجة والعلمية.

فالمختصون في البيولوجيا في جميع أنحاء العالم لا يختلفون في أمر ما بشأن اسماء النباتات بل يرجعون دوماً الى الاسم اللاتيني الذي ينتمي الى اللوحة البيولوجية التي هي جزء من اللوحة العلمية للعالم. لكن العالم الامريكي بلومفيلد يقول في كتابه «اللغة» مقرراً أهمية اللوحة غير العلمية أو الساذجة « يمكننا تعريف اسم اء المعادن، مثلاً، من خلال المصطلحات الكيمياوية واسماء المعادن، حينما نقول مثلاً أن اسم ملح الطعام هو كلوريد الصوديوم، كما يمكننا أن نحدد اسماء النباتات والحيوانات من خلال الاسماء العلمية في علم النبات والحيوان، لكنا لا نملك طريقة محددة لتعريف كلمات مثل الحب والكره، التي تخص مواقف لم يجري تحديدها بشكل دقيق، والأخيرة هي الأغلبية الكبرى» بلومفيلد ١٩٣٠ ، ص ١٣٩».

ولقد عملت العالمة اوفيمتسوفا على مواد لفاينرايخ وفيلمور واقترحت التفريق بين لوحة العالم ومخطط العالم mapping. والمفهوم الضمني لهذين المصطلحين كما أعتقد يكشف بشكل واضح الفرق في جوهريهما. فلوحة العالم تفترض النشاط اللساني الإبداعي وغياب الانعكاس الكامل. ويعني الأمر حسب هذا أن» اللوحات تتعدد بقدر عدد الراصدين»(دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ص ٣٢). فنحن موجودون في هذا العالم لكننا ننظر الى الأشياء ونحس بالظواهر كل من زاويته. ولذا فإن» لوحة العالم هي ليست صورة في المرآة بل هي دوماً نوع من التفسير»(دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨ ص:٢٩). لتوضيح الأمر أضرب مثلاً في كون الجحيم في الإسلام هو دائماً نار حارقة بينما الجحيم في الميثولوجيا الاسكندنافية قارس البرد. وصفات الجمال والحب التي يغدقها الغربي على كلبه تلاقي الاستهجان والغرابة لدى العربي.

تخطيط العالم هو خريطة وهو في الوقت نفسه استنساخ دقيق، لا ياسمح بالتفسيرات الذاتيه، المرتبطة بشكل عشوائي بالأصل. كما أنه في الوقت نفسه جاف غريب عن البدايات الانفعالية وهو تعقيم للواقع من الفنتازيا من الشعر. اللوحة تكون من دون تلك البدايات الروحية الإنسانية ميتة. تكتب إحدى الباحثات بهذا الصدد» تثبّت اللغة في مضمون وحداتها وبمقادير متساوية كونها- أي المضامين- صفات إنعاكسية واقعية (موضوعية) للأشياء المقصودة (الدينوتاتية) وكونها صفات الأشياء التي تسجلها المخيلة الإبداعية»(فارينا ١٩٧٦: ٢٣٤). والكلمة بصفتها الطريقة التي يتم من خلالها تخطيط العالم هي في تلك الحالة مجرد إشارة أو أتيكيت أوعلامة، في حين أن الكلمة بصفتها وحدة لوحة العالم هي إشارة خاصة تنبثق بشكل عشوائي و تلقائي لكنها تصبح الإشارة الأولى لفهم الشيء.

وكما كتب هومبلت فإن « اللغات المختلفة هي ليست اختلافات في تاسم يات الشيء ذاته بل هي رؤيات مختلفة لذلك الشيء»(هومبلت ١٩٩٥: ص ٣٤٨). كل ما قيل للتو لا ياسم ح لي بالموافقة على رأي العالمة أوفيمتسوفا بكون المفردات الأولية هي أقل المفردات مطابقة للوحة اللغوية للعالم. فهي تقول أن « ملاحظة المعنى المعجمي الذي يحمل بإلكاد صفات دينوتاتية فإن هذه الكلمات تقوم بدور تقني صرف في جانبها الدينوتاتي بحيث أنها لا تحمل أي شيْ جديد في النظرة الى العالم»(دور العامل الإنساني في اللغة ١٩٨٨: ص ١٣٣). بيد أن العالمة في الوقت نفسه تؤكد» أن المفردات الأساسية الخاصة بفئة معينة قد تختلف في مستوى التفاصيل في أطار الأشياء أو طبيعة الحالة التعليلية أو مستوى توزيع الكلمات الخاصة بتلك الفئة»(المصدر نفسه: ص ١٣٤).

فحول كلمة «جمل» في العربية تنتشر شبكة من المفردات لا تجد لها مكافئاً في اللغة الروسية. بينمالاتمتلك الكلمة العربية « بتولا» حقلاً واسعاً من التداعيات قياساً للغنى الواسع بالكلمات المتعلقة باسم هذه الشجرة في اللغة الروسية.

2-1

جرى في العقود الأخيرة من القرن العشرين إهمال الدراسات النظرية في اللسانيات. ويعود الأمر الى البراغماتية التي دخلت جميع مناحي العلوم وأدت كما هو معروف الى تراجع الدراسات الفلسفية. ولذا فإن البحث في موضوع الرؤية اللغوية للعالم كان أمراً شاقاً. فبرغم كون اللسانيين الروس مشهورين بالدراسات النظرية في الوقت الحاضر، قياسا بالباحثين في البلدان الأوروبية والولايات المتحدة، فإنني لم أجد سوى بضعة مصادر في الموضوع لا تتجاوز أصابع اليد. وكان بعض تلك البحوث من تأليف متخصصين في الفلسفة ليسوا لسانيين. ولذا فإن بحثي هذا يعد واحداً من بحوث قليلة في مجال النموذج اللغوي للعالم واردت من نشره أفادة طلاب اللسانيات والفلسفة بل وحتى طلاب الدراسات الإجتماعية حيث أن الموضوع لم يطرق حسب علمي في الدراسات الإنسانية في الجامعات العربية. واتمنى أن يجد به الطلاب مادة جديدة ومفيدة.